

بهن ماه ۱۳۹۲

السنن التاريخية في القرآن الكريم

الدكتور محمد كوراني — جبل عامل — لبنان

مقدمة : الدين سنّة وقانون إلهي لا بد منه وهو يتوافق مع الأحداث الخطيرة والمهمّة في الظواهر اللّافتة للنظر في حركة التاريخ البشري، وقد قاوم القرآن الكريم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الإستسلامية لتفسير الأحداث ونبه العقل البشري إلى ان للساحة التاريخية سننها وقوانينها، يعرض القرآن الكريم الدين على شكلين ، تارة يعرضه بوصفه تشريعا وقانونا إعتباريا وأخرى يبيّنه سنّة من سنن التاريخ وقانونا داخلا في صميم تركيب فطرة الإنسان.

عملية التغيير في القرآن الكريم: القرآن كتاب هداية ومعرفة للبشرية جمعاء ، وهو عملية تغيير عبّر عنها القرآن نفسه بأنها إخراج للناس من الظلمات الى النور .وعملية التغيير هذه فيها جانبان :

١ - جانب المحتوى والمضمون، ماتدعو إليه هذه العملية التغييرية من أحكام ومناهج وما تتبناه من تشريعات وهذا الجانب هو جانب رباني سماوي يمثل شريعة الله سبحانه^(١).

٢ - ممارسة النبي المكلف لعملية التغيير وأصحابه الأطهار، في مواجهة تيارات إجتماعية مختلفة من حولها واشتبكت معها في ألوان من الصراع والنزاع العقائدي والسياسي والعسكري ..وهؤلاء أناس كسائر الناس تتحكم فيهم إلى درجة كبيرة سنن التاريخ التي تتحكم في بقية الجماعات وفي بقية الفئات على مر الزمن^(٢). لكن عملية التغيير التي مارسها القرآن ومارسها النبي(ص) لها جانبان من حيث صلتها بالشريعة والوحي وهي ربانية ، فوق التاريخ وبما أنها

بہمن ماہ ۱۳۹۲

قائمة على الساحة التاريخية، وبالجهود البشرية المقاومة لجهود بشرية أخرى ، تعتبر عملا تاريخيا تحكمه سنن التاريخ ،وتتحكم فيه الضوابط التي وضعها الله سبحانه لتنظيم ظواهر الكون في هذه الساحة المسماة بالساحة التاريخية^(۳)..وقد أوردالقرآن الكريم تحكّم سنن التاريخ بالإنسان قائلاً: {وتلك الأيام نداولها بين الناس}^(۴)

لقد انتصر المسلمون في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا ،وخسرواومعركة أحدحينما كانت الشروط الموضوعية للخسارة تفرض عليهم أن يخسروا: {إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس}^(۵)..وبقدر ماتتوفرالشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق التاريخ التي وضعها الله سبحانه كونيا لاتشريعيًا والقرآن يذهب إلى أكثرمن ذلك..بحيث أنّ الجماعة عندما لاتقوم بدورها التاريخي، وإذا لم تكن على مستوى مسؤولية رسالة السماءفإن هذا لايغني أن تتعطل رسالة السماء، ولا يعنى أن تسكت سنن التاريخ عنهم، بل إنّها سوف تُستبدل .. وتأتى بأمر أخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعيةالأفضل لكي تلعب هذا الدور ، إذا لم تتهيأ لهذه الأمة الظروف الموضوعية لهذه الشهادة^(۶). {وإن تتولّوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم}^(۷)وقوله سبحانه: {إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما،ويستبدل قوماغيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كل شئى قدير}^(۸).

من هنا نرى بأن البحث في سنن التاريخ مرتبط ارتباطا عضويا شديدا بكتاب الله بوصفه كتاب هدى وبوصفه إخراجا للناس من الظلمات إلى النور ، لأن الجانب العملي البشرى والتطبيقي من

هذه العملية يخضع لسنن التاريخ .

بہمن ماہ ۱۳۹۲

إذن ، هذا لا يشبه سنن الفيزياء والكيمياء والفلك والحيوان والنبات ، تلك السنن ليست داخلية في نطاق التأثير المباشر في عملية التاريخ، ولكنها داخلية في نطاق التأثير المباشر على عملية التغيير^(٩).

✽ أساليب القرآن في بيان سنن التاريخ: بين القرآن سنن التاريخ بأشكال مختلفة وبأساليب متعددة في كثير من الآيات ، ومرة على مستوى إعطاء نفس هذا المفهوم بالنحو الكلي : إن للتاريخ قوانين ومرة أخرى سنّها على مستوى عرض هذه القوانين وبيان امثلة منها ، وثالثة بينها في سياق امتزاج النظرية مع التطبيق ، كما أكد في آيات أخرى على استقراء التاريخ من أجل الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية^(١٠): {أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم دمرّ الله عليهم وللكافرين أمثالها} ^(١١).

وكذلك أكد سبحانه في آيات أخرى على نفس نظرية الإستقراء : {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشا فنقبوا في البلاد ، هل من محيص؛ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد} ^(١٢).

✽ كيف كشف القرآن عن سنن التاريخ؟: يعتبر المفهوم القرآني فتحا عظيما للقرآن ، لأنّ القرآن أول كتاب عرفه الإنسان ، أكد على هذا المفهوم وكشف عنه وأصرّ عليه وقاوم بكل مألديه من وسائل الإقناع والتفهم ، كان الإنسان الإعتيادي يفسّر التاريخ بوصفه كومة متراكمة من الأحداث ، يفسره على أساس الصدفة تارة وعلى أساس القضاء والقدر والإستسلام لأمر الله سبحانه تارة أخرى. لقد قاوم القرآن الكريم هذه النظرة العفوية الإستسلامية ونبه العقل البشري إلى انّ هذه السّاحة لها قوانينها ، ولكي تكون إنسانا فاعلا مؤثرا لا بدّ لك أن تكشف هذه السنن ، ولا بدّ لك أن تتعرف عليها لكي تستطيع أن تتحكم بها .

بہمن ماہ ۱۳۹۲

إنّ هذا الفتح القرآني الجليل ، مهّد إلى تنبيه الفكر البشري بعد قرون من الزمن إلى أن تجرى محاولات لفهم التاريخ فهما علميا ، حيث بدأت على أيدي المسلمين أنفسهم فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه . ثم ابتداء الفكر الأوروبي في بدايات ماسمى بعصر النهضة نحو تجسيد هذا المفهوم الذي ضيّعه المسلمون ولم يستطيعوا التوغّل إلى أعماقه. وبدأت لدى الغربيين أبحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ ، ونشأت على هذا الأساس اتجاهات مثالية ومادّية ومتوسطة ومدارس متعدّدة ، كل واحدة منها تحاول أن تجدد نوااميس التاريخ . ولعل المادّية التاريخية هي أشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلا وأكثرها تأثيرا في التاريخ نفسه^(۱۳) .

حقائق سنن التاريخ: باستطاعتنا أن نستخلص الحقائق الثلاث التالية ، من خلال استعراض ماسبق ، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم بالنسبة إلى سنن التاريخ:

– الحقيقة الأولى: أنّ السنن التاريخية للقرآن هي ذات طابع علمي، وهذا أهم ما يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض وهو الإطراد والتتابع وعدم التخلف .

– الحقيقة الثانية: وهي ذات طابع رباني ، لأنها تمثل حكمة الله وحسن تدبيره على الساحة

التاريخية : {...وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا^(۱۴)}

– الحقيقة الثالثة : النظرة الإنسانية : وهي ذات طابع إنساني ، لأنها لاتفصل الإنسان عن دوره الإيجابي ولا تعطل من إرادته وحرية واختياره، وإنما تؤكد بإصرار على اختياره على الساحة التاريخية: {وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا

وجعلنا لمهلكهم موعدا } . سورة الكهف – ۵۹

بمهر ماه ۱۳۹۲

میدان السنن علی الساحة التاريخية: كيف نواجه ميدان هذه السنن؟ يجب أن نعرف أولاً ، ما المقصود بالساحة التاريخية؟ الساحة التاريخية عبارة عن الساحة التي تحوى تلك الحوادث والقضايا التي يهتم بها المؤرخون . ويسجلونها في كتبهم. فالسؤال هنا هل كل الحوادث والقضايا التي يربطها المؤرخون وتدخل في نطاق مهمتهم التاريخية والتسجيلية ، هل كلها محكومة بالسنن التاريخية؟ أو أن جزءاً معيناً من هذه الحوادث والقضايا هو الذى تحكمه سنن التاريخ؟

الصحيح أن جزءاً معيناً من هذه القضايا والحوادث ، هو الذى تحكمه سنة التاريخ ، هناك حوادث لا تنطبق عليها سنن التاريخ . بل تنطبق عليها القوانين الفيزيائية والفسيولوجية أو قوانين أخرى لمختلف الساحات الكونية الأخرى، مثلاً موت أبى طالب، أو موت خديجة فى سنة مهمّة تدخل فى نطاق ضبط المؤرخين ، وأكثر من ذلك هى حادثة تاريخية ذات بعد تاريخى ترتبط بها آثار كثيرة فى التاريخ ، ولكنها لا تحكمها سنن التاريخ، بل تحكمها سنن (فسيولوجية)، هى قوانين الحياة التى تفرض المرض والشيخوخة ضمن شروط معينة وظروف معينة.

إن العمل التاريخى الذى تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذى يكون حاملاً لعلاقة مع هدف وغاية ، ويكون فى نفس الوقت ذا أرضية أوسع من حدود الفرد، ذا موج يتخذ من المجتمع علّة ماديّة له ؛ وبهذا يكون عملاً إجتماعياً ^(١٥) وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها، اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون} ^(١٦) أما فى آية أخرى فإننا نلاحظ فى قوله سبحانه: {وكلّ أئمة أئمة فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً} ^(١٧). هذا كتاب الفرد والأول كتاب الأمة ، وكما يوجد سجلان ، كذلك يوجد إحضاران . من هنا نستخلص ، أن موضوع السنن التاريخية هو العمل الهادف الذى يتخذ من المجتمع أو الأمة أرضية له ، على اختلاف سعة الموجة وضيق الموجة .

بمهر ماه ۱۳۹۲

أشكال السنن التاريخية: هناك ثلاثة أشكال تتخذها السنن التاريخية في القرآن الكريم لا بدّ من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها .

– الشكل الأول: وهو شكل القضية الشرطية ، حيث تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية ، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء ، وأنه متى تحقق الشرط تحقق الجزاء . وهذه صياغة نجدتها في أكثر القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الأخرى ^(١٨).. فإذا قلنا مثلا إنّ الماء لا يغلي إلا بدرجة معينة من الحرارة ، فهذا قانون طبيعي شرطي لغليان الماء .. ومن الواضح أن هذا القانون الطبيعي لا ينبئنا شيئا عن تحقق الشروط وعدم تحققه ، ولا يتعرض إلى مدى وجود الشرط وعدم وجوده ، ولا ينبئنا شيئا عن عدم تحقق الشرط إيجابا أو سلبا ، وإنما ينبئنا أن الجزاء لا ينفك عن الشرط ، متى ما وجد الشرط وجد الجزاء . فالغليان نتيجة مرتبطة موضوعيا بالشرط ^(١٩) .

إن مثل هذه القوانين تقدّم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الإعتيادية وتلعب دورا عظيما في حياة الإنسان ... إذن القانون الموضوع بصيغة القضية الشرطية موجّه عملي للإنسان في حياته . فلو تناولنا الآية الكريمة التالية لوجدنا العلاقة بين التغيرين: المحتوى الداخلي للإنسان، والوضع الظاهري للبشرية وفيها لغة القضية الشرطية: {وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} ^(٢٠) وهذه سنة من سنن التاريخ تربط وفرة الإنتاج بالعدالة في التوزيع . {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا} ^(٢١) لقد ربطت هذه الآية بين تأمير الفاسقين والمترفين في المجتمع وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله ، فمتى ما وجد الشرط يوجد الجزاء .

بهن ماه ١٣٩٢

-الشكل الثاني : وهو الذى تتخذه السنن التاريخية، شكل القضية الفعلية الناجزة المحققة. وهذا الشكل نجد له أمثلة وشواهد فى القوانين الطبيعية والكونية . مثلا: العالم الفلكى حينما يصدر حكما علميا على ضوء مسارات الفلك ، بأن الشمس سوف تنكسف فى يوم محدد ، أو أن القمر سوف ينخسف كذلك ، هذه قضية علمية ، إلا أنها قضية وجودية ناجزة وليست قضية شرطية ، لذا لا يملك الإنسان خيار تغيير ظروفها أو تعديل شروطها ، لأن الحادثة ستقع فى كل الأحوال.

إن السنن التاريخية ذات الصيغ الشرطية هى فى الحقيقة ليست على حساب إرادة الإنسان ، وليست تقيضا لاختيار الإنسان بل هى مؤكدة لهذا الإختيار^(٢٢).

-الشكل الثالث : هو السنة التاريخية المصاغة على صورة اتجاه طبيعى فى حركة التاريخ ، لا على صورة قانون صارم. القانون العلمى كما نتصوره عادة عبارة عن تلك السنة التى لا تقبل التحدى ولا النقص من قبل الإنسان وهو بالتالى محكوم لها ولا يستطيع الخروج عن دائرة طاعتها ، لأنها من قوانين الكون والطبيعة.. وهناك اتجاهات موضوعية فى حركة التاريخ وفى مسار الإنسان لكن مع شىء من المرونة .. وتقبل التحدى ، ولكنها مع ذلك قد تحطم هذا المتحدى بسنن التاريخ نفسها ، فمثلا نقول أن هناك فى تكوين الإنسان وتركيبه اتجاهها موضوعيا لاتشريعا إلى إقامة العلاقات المعينة بين الذكر والأنثى فى المجتمع ضمن إطار من أطر الإتصال، وهذا الإتجاه ليس تشريعا وإنما هو اتجاه موضوعى ، لكنها سنة على مستوى الإتجاه ، لا على مستوى القانون. لماذا! لأن التحدى لهذه السنة أمكن قوم لوط أن يتحدوا هذه السنة فترة من الزمن بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدوا سنة غليان الماء بشكل من الأشكال . إلا أن تحدى هذه السنة يؤدى إلى أن يتحطم المتحدى على المدى الطويل ، والمجتمع الذى يتحدى هذه السنة يكتب بنفسه فناء

بہمن ماہ ۱۳۹۲

نفسه ، لأنه يتحدى ذلك عن طريق ألوان من الشذوذ تؤدي إلى فناء المجتمع وإلى خرابه وهذا ما حصل فعلا لقوم لوط. (۲۳)

إن الإتجاه إلى توزيع الميادين بين الرجل والمرأة ، هو اتجاه موضوعي وليس اتجاها ناشئا عن قرار تشريعي ، اتجاه رُكِّب في طبيعة الرجل والمرأة ، لكن هذا الإتجاه يمكن أن يتحدى ، إذ يمكن استصدار تشريع يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولى دور الحضانه والتربية ، وأن تخرج المرأة لكي تتولّى مشاق العمل والجهد ، وبهذا يحصل التحدى لهذا الإتجاه. لكن هذا التحدى سوف لن يستمر ، لأن سنن التاريخ سوف تجيب على هذا التحدى لأننا بهذا سوف نخسر كل القابليات التي زُوِّدت بها المرأة من قبل هذا الإتجاه لممارسة دور الحضانه والأمومة وسوف تنحسر كل القابليات التي زُوِّد بها الرجل من أجل ممارسة دور يتوقف على الصبر والجلد والثبات وطول النفس، تماما من قبيل أن بنایة تُسَلَّم نجاريتها إلى حداد وحداديتها إلى نجار، يمكن أن نصنع هكذا ويمكن أن تنشأ البنایة أيضا لكن هذه البنایة سوف تنهار سوف ، لن يستمر هذا التحدى على شوط طويل (۲۴)

الدين سنة إلهية من الشكل الثالث : وأهم مصداق يعرضه القرآن الكريم لهذا الشكل من السنن:الدين، فالقرآن الكريم يرى أن الدين ليس مجرد تشريع وإنما هو سنّة موضوعية من سنن التاريخ، ولهذا يعرض الدين على شكلين : تارة يعرضه بوصفه تشريعا كما في قوله تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه } (۲۵) يعنى هذا الدين لايمكن أن ينفك عن خلق الله مادام الإنسان إنسانا .فالدين الإلهي سنة وقانون لا بد منه ، ولكنها ليست سنّة صارمة على مستوى قانون الغليان ، بل هو سنة تقبل التحدى على الشوط القصير ، كما كان بالإمكان سنة الزواج الطبيعي ،

بہمن ماہ ۱۳۹۲

عن طريق الشذوذ الجنسي لكن على شوط قصير؛ لأن العقاب سوف ينزل بالمتحدى. وإنما العقاب هنا ينزل كسنة من سنن التاريخ نفسها^(۲۶)

القرآن ودور الإنسان في حركة التاريخ: إن المستقبل هو المحرك الأساسي لأي نشاط من النشاطات التاريخية ، وإذا ما امتزج الفكر بالإرادة فإن فاعلية المستقبل تتحرك باتجاه النشاط التاريخي على الساحة الإجتماعية . فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي للمجتمع، علاقة تبعية، ومسبب بسبب، وهي تمثل السنة التاريخية بقوله تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}^(۲۷). يتبين من خلال الآية أن المحتوى الداخلي للإنسان ، هو القاعدة والأساس للبناء العلوي للحركة التاريخية .. ولهذا سمي الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي إذا اتجهت اتجاهها صالحا "بالجهاد الأكبر" وسمى عملية البناء الخارجي "الجهاد الأصغر". وربط الجهادان الأصغر بالأكبر واعتبر أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه ومضمونه وقدرته على التغيير على الساحة التاريخية والإجتماعية^(۲۸). وأما عملية البناء الداخلي للإنسان فهو المثل الأعلى الذي يجسد الغايات التي تحرك التاريخ من خلال ذهنية تمتزج فيها الإرادة بالتفكير، فتصبح الغايات بنفسها محركات للتاريخ ، فبقدر ما تكون المثل العليا للجماعات البشرية سالحة وعالية وراقية وممتدة تكون الغايات سالحة وممتدة، وبقدر ما تكون هذه المثل محدودة ومنخفضة .. ولا يتحدد ذلك إلا من خلال وجهة نظر الجماعة نحو الكون والحياة. وكلما كانت الطاقة الروحية والرؤية الفكرية للجماعات البشرية متناسبة مع المثل العليا، تتحقق عندها إرادتها للسير في طريق هذه المثل .. والقرآن الكريم يطلق على المثل الأعلى إسم الإله، باعتبار أن المثل الأعلى هو الأمر القائد المطاع الموجه، وهذه صفات يراها القرآن للإله ، لانه هو الذي يصنع مسار التاريخ ، حتى ورد في قوله سبحانه وتعالى: {أرأيت الذي اتخذ إلهه هواه}^(۲۹).

فالمثل العليا، إذا حسب التعبير القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة.

بهن ماه ۱۳۹۲

أما المثل العليا التي تتبناها الجماعات البشرية فهي على ثلاثة أقسام:

١ — المثل الأعلى الذي يُستمد تصوّره من الواقع نفسه، بحدوده ، وقيوده ، وشؤونه. أي من واقع الجماعة، فيكون عندئذ حالة تكرارية جامدة، وهنا لا يمكن للجماعات البشرية أن تتجاوز الواقع وأن ترقى بطموحاتها.

هذا النمط من المجتمعات هم الذين واجهوا الأنبياء الذين جاؤوهم بالمثل العليا . هذه المجتمعات سادتها العادة والتّميّع الموروثين وردّ أفرادها بمنطق واحد: إنّنا وجدنا آباءنا على هذه السنّة والطريقة ونحن متمسكون بمثلهم العليا ..يعنى لقد تحولوا إلى حسيين لا إلى مفكرين: {قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أولو كانآباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} (٣٠).

أما من الناحية الإجتماعية، فهناك التسلّط الفرعوني عبر التاريخ، حيث أن هؤلاء الفراعنة يجدون أن أي تطلع أو عمل تغييرى للحاضر نحو المستقبل هو زعزعة لوجودهم وهزاً لمراكزهم .

ولذا نجد في هذا الواقع أن الأمة المرغمة على إغماض عيونها والإخلاق إلى واقع لا يمكن تجاوزه يتوقف عندها الطموح نحو مستقبل تغييرى أفضل فيصير السبب إجتماعى لانفسى ، أى خارجى لاداخلى، وهذه الناحية يوضحها القرآن الكريم {وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى} (٣١). لقد حوّل الفرعون هذه النظرة إلى واقع لا يمكن تجاوزه، لأنه يجد في التجاوز خطراً عليه.

ولكى تجتنب الأمة عبادة الطواغيت وإطاعتهم لابد من جعل الحقيقة مدار همّهم {فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه} (٣٢).

بہمن ماہ ۱۳۹۲

إنَّ الآيات التي حكت مواقف الأمم السابقة من أنبيائها ورفضها دعواتهم بحجة التمسك بعبادة الآباء والأجداد. إنما كانت تبين المثل العليا المنخفضة والتي هي أديان متجزأة في مقابل دين التوحيد. والتي كانت آلهة من صنع الإنسان ، واتي عبر عنها القرآن الكريم بقوله {إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم} (۳۳).

سقوط المثل العليا وسنن التاريخ: يمكننا تتبع ثلاثة إجراءات تنطبق على حال القسم الأكبر من الأمة الإسلامية في ماضيها وحاضرها :

الإجراء التاريخي الأول: وهو تداعي الأمة أمام غزو عسكري خارجي نتيجة فراغها لمحتواها ، وتخليها عن وجودها كأمة ، وانحلالها من كل القيم المساعدة على صمودها واستمرارها ، وهذا ما وقع بالفعل للأمة إبان الغزو الصليبي في القرون الوسطى ، وما حدث لها في العصر الحديث أمام الغزوات الإستعمارية ، حيث فقدت الأمة ولاءها لهذه المثل العليا . وسقطت حضارتها بالضربة الكبرى بأيدي التتار ، على سبيل المثال .

الإجراء التاريخي الثاني: هو الذوبان والإنصهار في "المثل العليا"!! المستوردة من الخارج ، وإعطائها الولاء ، ومنحها زمام القيادة .

الإجراء التاريخي الثالث: العمل على إنشاء مثل عليا للأمة بمستوى العصر الذي تحيا فيه حتى تستطيع إعادة الإمساك بزمام الريادة . وأمام هذين الإجراءين الأخيرين وقفت الأمة على مفترق طريقين حينما دخلت عصر الإستعمار ، كان هناك طريق يشدها للإنصهار في (مثل أعلى) خارجي وهذا ما طبقه اتاتورك في تركيا ورضا خان في إيران ، عندما انبهروا (بالمثل الأعلى)!! الأوروبي (التكنولوجي)، المنتصر، فضيعوا مثلهم الأعلى الأصيل . ولم يستطع رواد الفكر الإسلامي في فترة العصر الإستعماري إعادة الحياة إلى الإسلام وتقديمه بلغة العصر وبلغة حاجات المسلمين .

بهن ماه ۱۳۹۲

فكيف حال الأمة إذا واجهت الحالات الثلاث مجتمعة؟ طبعاً وبالتأكيد، ستكون أمة ضائعة، جامدة، متفوقة ثم منهارة.

فالمسألة في كثير من الأحيان تبدأ بمثل أعلى له طموح مشتق من طموح مستقبلي، ثم يتحوّل هذا المثل الأعلى إلى مثل تكرارى، وهذا بدوره وهذا يتمزق وتتحوّل الأمة إلى شبح أمة^(۳۴).

وفي هذه الفترة لا بد للأمة من المرور بمراحل يمكننا تلخيصها في أربعة مراحل :

المرحلة الأولى: (الفاعليّة والتجديد):

هذا المثل تكون له المرحلة الأولى لأنه مشتق من طموح ونظرة مستقبليين، فهذه المرحلة هي مرحلة العطاء والفاعلية والتجديد، لكن هذه المراحل المجتمعة ، هي عطاء يسميه القرآن الكريم بالعاجل، لأن عمره قصير وعطاءه محدود. قال تعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً}^(۳۵). فالعطاء العاجل والمكاسب العاجلة تعقبها جهنم في الدنيا والآخرة.

المرحلة الثانية: (الكبر والإنقياد):

حينما يتجمد المثل الأعلى ويستنفذ طاقته وقدرته يتحول إلى تمثال ولا يبقى. فالقادة الذين كانوا يعطون ويوجهون يتحولون إلى سادة وكبراء، وجمهور الأمة يتحول إلى مطيعين ومنقادين لا إلى مشاركين في الإبداع والتطوير، وهذه المرحلة هي التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السبيلاً}^(۳۶).

المرحلة الثالثة: (الإمتداد والإستيعاب):

بهن ماه ۱۳۹۲

وفي هذه المرحلة تتحول السلطة الحاكمة إلى طبقة تتوارث مقاعدها عائليا أو طبقيا، بشكل من أشكال الوراثة^(۳۷). حينئذ تصبح هذه الطبقة ، طبقة مترفة منعمة ، مشغولة بهمومها الصغيرة .وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الطبقة بما يلي: {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون.} ^(۳۸) فهؤلاء نتاج الآباء ، لهم تاريخهم ، وهم امتداد واستمرار لذلك التاريخ .

المرحلة الرابعة: (التسلط والإجرام):

حينما تفتت الأمة وتتمزق وتفقد ولاءها تدخل في مرحلة خطرة ، حيث يسيطر عليها مجرموها الذين لا يراعون عهدا ولا ذمة . وفي هولاء يقول القرآن الكريم : {وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم} ^(۳۹) .

خاتمة:

نخلص في النهاية إلى الإقتناع بأن الحالات التي تجرى فيها الطبيعة والكون ، ليست عشوائية قائمة على الصدفة والإتفاق . وإنما الأمر المعجز من الناحية التاريخية ، هو شرط من شروط تحقق الحكمة الإلهية في الكون،، وهو إعادة رسم الصورة الحقيقية لرسالة هذا الخالق التي لم تكن بعض العادات الإجتماعية والتحديات الثقافية تنسجم لا مع غايات الله ، وغايات الإنسان ،أوغايات الطبيعة ، الظاهرة والباطنية للعالم ، من هذا الأمر تتقدم فلسفة التاريخ لمعرفة المنحى التاريخي في دوافع استحضار الظاهرة الخارقة من جهة، ومن جهة أخرى معرفة دورها في إعادة توجيه التاريخ السنني ورسمه، وإعادة صناعته على حساب حدود العقل الكلي ، وعلة صدورها برهانا ، على صحة الرسالة ، وفقا لما تعارف عليه الناس ووفقا لما سيتعارف عليه الناس بعد. وليس من جماعة من الجماعات ، مستثنى من سنة



دومین ہمایش ملی اعجاز قرآن



بہمن ماہ ۱۳۹۲

التاریخ . {أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم يأتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب.} (۴۰)

قائمة المراجع :

(هوامش البحث)

- ۱ — السيد محمد باقر الصدر — السنن التاريخية في القرآن — دار التعارف — بيروت — سنة ۱۹۸۹ — ص ۴۸.
- ۲ — المصدر نفسه — ص ۴۸ — ۴۹.
- ۳ — المصدر نفسه — ص ۴۹.
- ۴ — سورة آل عمران — الآية ۱۴۰.
- ۵ — سورة آل عمران — الآية ۱۴۰.
- ۶ — السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۵۰.
- ۷ — سورة محمد — الآية ۳۹.
- ۸ — سورة التوبة — الآية ۳۹ .
- ۹ — السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۵۱.
- ۱۰ — المصدر نفسه — ص ۵۲.
- ۱۱ — سورة محمد — الآية ۱۰ .



دومین ہمیش ملی اعجاز قرآن



بہمن ماہ ۱۳۹۲

- ۱۲— سورة ق — الآیة ۳۶ — ۳۷ .
- ۱۳— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۶۲ — ۶۳ .
- ۱۴— سورة الكهف — الآیة ۵۹ .
- ۱۵— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۷۳ .
- ۱۶— سورة الجاثیة — الآیة ۲۸ — ۲۹ .
- ۱۷— سورة الإسراء — الآیة ۱۳ .
- ۱۸— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۸۳ .
- ۱۹— المصدر نفسه — ص ۸۳ .
- ۲۰— سورة الجن — الآیة ۱۶ .
- ۲۱— سورة الإسراء — ص ۱۶ .
- ۲۲— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۸۸ .
- ۲۳— المصدر نفسه — ص ۸۸ .
- ۲۴— نفس المصدر — ص ۸۹ — ۹۰ .
- ۲۵— سورة الشوری — الآیة ۱۳ .
- ۲۶— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۹۱ .
- ۲۷— سورة الرعد — الآیة ۱۱ .
- ۲۸— السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۱۰۶ .



دومین همایش ملی اعجاز قرآن



بهمین ماه ۱۳۹۲

- ۲۹ — سورة الفرقان — الآية ۴۳ .
- ۳۰ — سورة البقرة — الآية ۱۷۰ .
- ۳۱ — سورة القصص — الآية ۳۸ .
- ۳۲ — سورة الزمر — الآية ۱۸ .
- ۳۳ — سورة النجم — الآية ۲۳ .
- ۳۴ — السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۱۱۵
- ۳۵ — سورة الإسراء — الآية ۱۸ .
- ۳۶ — سورة الأحزاب — الآية ۶۷ .
- ۳۷ — السنن التاريخية — مصدر سابق — ص ۱۲۱
- ۳۸ — سورة الزخرف — الآية ۲۳ .
- ۳۹ — سورة الأنعام — الآية ۱۲۳ .
- ۴۰ — سورة البقرة — الآية ۲۱۴ .